بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا كتاب مجمع النوادر المعروف باسم «جهار مقاله» أي المقالات الأربع وهو من أقدم الكتب الفارسية التي عالجت جوانب من الحياة الأدبية والعلمية في الجانب الشرقي من العالم الإسلامى منذ القرن الثالث الهجري حتى منتصف القرن السادس.

وقد طبع هذا الكتاب في «سلسلة ذكرى جب»[1]، بعد أن حظي بعناية العالم المحقق الأستاذ محمد بن عبد الوهاب القزويني. وحسب الكتاب وقرائه والباحثين في موضوعاته أن يتناوله العلامة القزويني على طريقته في التحقيق والتدقيق والتصحيح والتعليق.

صحح الناشر الكتاب بعد أن قابل بين نسخة المخطوطة وكتب عليه حواش أبانت عن الصواب في روايات أخطأ فيها مؤلفه، وأوضحت ما لنبهم من الأسماء والحوادث التي ذكرت فيه، وزادت فوائد نوادر لا تقل قيمة عن الكتاب نفسه.

المقدمة الفارسية التي كتبها العلامة القزويني لا تدع مقالا لقائل فقد اعتمدنا عليها وأخذنا منها ما يتصل بالكتاب ومؤلفه في هذه المقدمة.

---

(١) Gibb Memorial Series.

١

الكتاب

اجتمعت لكتاب جهار مقاله أمور جعلت له خطرا كبيرا بين كتب التاريخ والأدب: فهو من الكتب الفارسية القديمة، ألف في حدود سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥-١١٥٦م ومعلوم أن الكتب والآثار الأدبية التي كتبت باللغة الفارسية قد ضاع معظمها في الغارات التي شنها على إيران المغول والغز وغيرهم ولم يبق من هذه الكتب إلا القليل ومنها كتاب «جهار مقاله» الذى يعدُّ من خير هذه الآثار وأقومها.

وأمر آخر تزيد به قيمة الكتاب هو اشتماله على كثير من المطالب التاريخية وتراجم لمشاهير الأعلام الذين لم يرد ذكرهم في غيره من كتب الأدب والتاريخ.

وهو مهم أيضًا في إنشائه من حيث إيجاز اللفظ وإشباع المعنى وسلاسة الأسلوب وخلوه من المتعاطفات المترادفة والأسجاع الثقيلة والصناعة اللفظية المتكلفة التي جرى عليها أغلب الكتاب المتأخرين، فهو يصلح مثلا يحتذى وأنموذجا يتبع لكتاب الفرس المحدثين.

والكتاب -كما يدل اسمه- أربع مقالات: في بيان ما تتصف به الطوائف الأربع التي يحتاج إليها الملوك وهم الكتاب والشعراء والمنجمون والأطباء. فيذكر المصنف ما ينبغي أن يتوفر لكل طبقة من صفات، ثم يعقب ذلك بما يقرب من عشر حكايات تناسب المقام.

وللمقالة الثانية في الشعر مكانة خاصة لأنها تحوي أسماء كثير من شعراء إيران المتقدمين الذين عاصروا السامانيين والغزنويين والخانيين والديالمة والسلاجقة

والغروبين؛ كما أنها تحوي تراجم بعض مشاهيرهم مثل الرودكي والعنصري والفرخي والمعزي والفردوسي والأزرقي والرشيدي ومسعود سعد سلمان.

وامتازت المقالة الثالثة بحديث عن عمر الخيام، وكان نظامي من معاصريه وقد رآه وسمع عنه.

عرفت قيمة «جهار مقاله» منذ صنفه نظامي العروضي وتداولها الكتاب لخطر موضوعه. وقد يسر إيجازه استنساخه فنقلت عنه معظم كتب التاريخ والأدب. وأقدم الكتب التي نقلت عنه «تاريخ طبرستان» لمحمد بن الحسن بن اسفنديار الذى ألف قرب سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦-١٢١٧م أي بعد تأليف «جهار مقاله» بنحو ستين سنة[١]. ثم نقل عنه «تاريخ كزيده» لحمد الله المستوفى ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩-١٣٣٠م، و«تذكرة الشعرا» لدولت شاه ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م، و«نكارستان» للقاضي أحمد الغفاري ٩٥٩هـ/ ١٥٥٢م وغيرها.

واسم الكتاب «مجمع النوادر» ولكنه اشتهر باسم «جهار مقاله» لاشتماله على المقالات الأربع التي ذكرنا. وقد توهم بعض الكتاب[٢] أن «مجمع النوادر» و«جهار مقاله» كتابان مختلفان من تأليف نظامي العروضي. وممن وهم في هذا الحاج خليفة[٣]. والحقيقة أن الاسمين يطلقان على كتاب واحد أولهما علم موضوع للكتاب

(١) نقل ابن اسفنديار الفصل الخاص بالفردوسي والسلطان محمود نقلا حرفيا ولكنه لم يذكر المصدر الذي نقل عنه.

(٢) الرازي في كتابه «هفت إقليم».

(٣) فقد ذكر الاسمين في موضعين من كتابه بصورة تفيد أنه ظن أنهما يطلقان على كتابين مختلفين. والمعروف أن حاجي خليفة لم يقصر حديثه على الكتب التي رآها بنفسه بل أدخل في كتابه الكتب التي سمع عنها أيضا، ومن اليسير التفرقة بين الاثنين. يقول عن «جهار مقاله»: فارسي لنظام الدين أحمد بن علي العروضي السمرقندي الشاعر، ذكر فيه أنه لا بد للملك من الكاتب والشاعر والمنجم

والثاني علم بالغلبة. ودليل ذلك أن حمد الله المستوفي في كتابه «تاريخ كزيده» يذكر «مجمع النوادر» وحده وينقل عنه كثيرا، كحكاية الرودكي والأمير نصر الساماني في هراة وقصيدة الرودكي المشهورة:

ما يزال يهب علينا عرف جيحون وما يزال يهب علينا عرف الحبيب[١]

وحكاية تاش وما كان بن كاكى وجملة «أما ما كان فصار كاسمه والسلام»[٢] وسؤال الأمير نظامي العروضي أيوجد نظامي غيرك فقال على البديهة:

مولاي نحن في الدنيا ثلاثة نظاميين تدوى الدنيا باسمنا[٣]

ثم إن القاضي الغفاري يذكر في مقدمة «نكارستان» ما يقرب من ثلاثين كتابا مشهورا في الأدب والتاريخ والتراجم والمسالك والممالك وغيرها ويذكر من جملتها كتاب «مجمع النوادر» لنظامي العروضي ثم ينقل عدة حكايات منه كلها مذكورة في «جهار مقاله»، منها قصة رؤية المؤلف عمر الخيام في بلخ، وحكاية السلطان محمود مع أبي العباس خوارزمشاه ومن كان في بلاطه من أهل العلم كابي علي بن سينا وأبي الريحان البيروني وأبي الخير الخمار وغيرهم، ومنها قصة الوزير نظام الملك الطوسي مع الحكيم الموصلي في نيسابور. وهو يقول في مطلع أغلب هذه الحكايات «جاء في

والطبيب، فذكر لكل صنف مقالة. ويقول عن «مجمع النوادر»: فارسي لنظام الدين أبي الحسن أحمد بن عمر بن علي بن المكي (كذا) العروضي السمرقندي.

(١) بوى جوى مولیان آید همیوی یار مهر بان آید همی

(انظر المقالة الثانية)

(٢) انظر المقالة الأولى.

(٣) در جهان سه نظا مئیم اي شاهكه جهان ز ما بافغا نند

(انظر المقالة الثانية)

مجمع النوادر» أو «ذكر صاحب مجمع النوادر» أو «مسطور في مجمع النوادر». وهذا دليل قاطع على أن «مجمع النوادر» و«جهار مقاله» اسمان لكتاب واحد.

ويؤيد هذا أيضًا أن رضا قليخان يذكر في مقدمة كتابه «مجمع الفصحا» كتاب «جهار مقاله» ضمن مصادره فيقول: «مجمع النوادر لنظامي العروضي المشهور بالسمرقندي الموسوم بجهار مقاله» وهذا صريح في أن الاسمين لكتاب واحد.

لم يبين المؤلف تاريخ كتابه، ولكن الظاهر أنه لم يتأخر عن سنة ٥٥٢هـ/ ٢٢٥٧م، السنة التي توفي فيها السلطان سنجر السلجوقي، فإن الكتاب ألف أثناء حياة هذا السلطان. فالمؤلف يدعو له فيقول «أطال الله بقاءه وأدام إلى المعالي ارتقاءه». ويذكره مرة أخرى مع السلطان علاء الدين الغوري ويقول: «خلد الله ملكهما وسلطانهما». والظاهر أيضًا أن الكتاب لم يؤلف قبل سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م لأنه يذكر في الكتب التي ينبغي للكاتب قراءتها وحفظها «مقامات الحميدي»[1] وهذه المقامات ألفت سنة ٥٥١هـ/ ١١٥٦م فتاريخ تأليف الكتاب بين سنتي ٥٥١ و٥٥٢ هجرية.

ومع ما للكتاب من القيمة العلمية والأدبية قد وقع صاحبه في بعض الأغلاط التاريخية من خلط في أسماء الأشخاص وتقديم وتأخير في السنين وتهاون في ضبط الوقائع. وقد صحح العلامة القزويني هذا كله في حواشيه.

(١) ص١٣ طبعة جب التذكارية.

٢

المصنف

وأما المصنف نفسه فلا نجد في التذاكر ما يعرّف به وبسيرته. وأقدم من كتب عنه العوفي في كتابه «لباب الألباب» الذي ألف حوالي سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م أي بعد تأليف «جهار مقاله» بما يقرب من ستين سنة. ومع قرب العهد بين صاحبي اللباب وجهار مقاله قد اقتصر العوفي في ترجمة العروضي[١] على العبارات المسجعة ولم يذكر شيئا عن حياته، وقد عزا إليه خمس قطع من الشعر الضعيف لا تدل على شيء؛ وحينما تحدث عن الرودكي في موضع آخر، ذكر بيتين من الشعر نسبهما لنظامي العروضي[٢]:

يا من تطعن في شعر الرودكي ... إن طعنك جهل وصغار

فإن من يقدر الشعر يعرف ... أن الرودكي ملك الأشعار[٣]

ثم جاء ذكر العروضي في «تاريخ كزيده» لحمد الله المستوفى القزويني، وهو مؤلف في سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٣م. قال إنه كان معاصرا لنظامي الكنجوي وإن من مصنفاته كتاب «مجمع النوادر» وإن له أشعارا جميلة، ويقال: إن السلطان سأله: من غيرك يحمل اسم نظامي؟ فقال الأبيات التي مطلعها:

---

(١) (٢/ ٢٠٧، ٢٠٨) من طبعة Browne.

(٢) (٢/ ٧).

(٣) اى آنكه طعن كردى در شعر رودكياين طعن كردن توز جهل است وكود كيست
كآن كس كه داند داند كه درجهاصاحب قران شاعرى استاذ رودكيست

مولاي نحن في الدنيا ثلاثة نظاميين تدوّي الدنيا باسمنا

وتحدث عنه دولتشاه صاحب «تذكرة الشعرا» المؤلفة سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م فقال: إن نظامي العروضي كان مقربا من الملوك، فاضلا، لطيف الطبع، وهو من تلاميذ المعزّي وكان مجيدا في نظم الشعر، وقد نظم قصة «ويس ورامين». ويقال: إن الشيخ الكبير نظامي الكنجوي نظم هذه القصة قبل «الخمسة»[١]. ومن تصانيف العروضي كتاب «جهار مقاله». ثم يصف دولتشاه هذا الكتاب بأنه «مفيد كل الإفادة في آداب المعاشرة والحكمة العملية ومعرفة رسوم خدمة الملوك وغير ذلك»، ويذكر بعد ذلك بيتا من منظومة «ويس ورامين» للعروضي وهو:

قد سمي آرش بصاحب القوس لأنه رمى سهما من آمل إلى مرو[٢]

ولكن دولتشاه عاد في حديثه عن الكنجوى، فنفى نسبة «ويس ورامين» إلى العروضي ورجح نسبتها إلى الكنجوى. قال: «وقد نظم الشيخ قبل «الخمسة» وهو في شبابه قصة «ويس ورامين» باسم السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ويقال: إنها من نظم نظامي العروضى، والصحيح أنها من نظم الشيخ الكبير نظامي فإن العروضي كان معاصرا لملكشاه ولا شك أن القصة نظمت باسم السلطان محمود وهو أقرب إلى عهد نظامى»[٣].

---

(١) إشارة إلى خمسة نظامي وهي المشهورة بالكنوز الخمسة (بنج كنج) وهي: مخزن الأسرار، خسرو وشيرين، ليلى والمجنون، هفت بيكر واسكندر نامه.

(٢) از آن خوانند آرش راكمان كيركه از آمل بمرو انداخت أو تير

(٣) قال القزويني في مقدمته: إن المؤرخين وأصحاب التذاكر مجمعون على أن «ويس ورامين» من نظم فخر الدين أسعد الكركاني وليس من عمل نظامي العروضي أو نظامي الكنجوي. وقد جمع الحاج خليفة بين القولين رفعا للنزاع فنسب نظم «ويس ورامين» لفخري الكركاني ولنظامي العروضي،

والمؤرخ الرابع الذي تحدث عن العروضي هو أحمد أمين الرازي في كتابه «هفت إقليم» المؤلف سنة ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٣م. وهو يثني على العروضي ويجعله من المبرزين في نظم المثنوي ويقول: إن له كتابي «مجمع النوادر» و«جهار مقاله» وهما منثوران، وقد جعله نور الدين محمد العوفي في تذكرته من شعراء السلطان طغرل بن أرسلان السلجوقي، وهو ينسب نفسه إلى الغوريين في «جهار مقاله». ثم يذكر صاحب «هفت إقليم» آخر حكاية في المقالة الثالثة من «جهار مقاله» ويروي الأشعار التي ينسبها صاحب «لباب الألباب» إلى العروضي ويزيد عليها قطعة.

هذا هو ما ورد في التذاكر الأربع، وقد نقلت عنها الكتب الأخرى، على أن ما ورد في الكتب الأربعة لا يفيد كثيرا في التعريف بالعروضي.

والحق أنه كان ينظم الشعر ص٤٠-٤٢ وأنه كتب «جهار مقاله» وهو كما قلنا من أحسن نماذج الإنشاء الفارسي. وأنه ناقش موضوع «الآثار العلوية» ص٥ في كتاب لا ندري اسمه. وكان العروضي فيما عدا النثر والشعر ماهرا في فني النجوم والطب، ودليل ذلك ما ورد في حكايتين في المقالتين الثالثة والرابعة[١]. وليس لدينا علم بسيرته وتاريخ مولده وسنة وفاته. ولكنا نجد في ثنايا «جهار مقاله» ما يلقي بعض الضوء على سيرة الرجل. فالكتاب ألف باسم أحد أمراء الغوريين، أبي الحسن حسام الدين[٢]، وكان العروضي من خواص ملوك هذه الأسرة، وقد نص على أنه كان في الخامسة والأربعين من عمره حين التحق بخدمتهم[٣]. وفي المقالة الثانية يعد

وهذا خطأ أفحش من خطأ دولتشاه (ص يز من المقدمة، وحاجي خليفة (٦/٤٦٨) طبعة فلوجل (Flugel).

(١) ص٦٥-٦٧، ٨٧، ٨٨ من «جهار مقاله» طبعة جب التذكارية.

(٢) انظر الحواشي عن الغوريين أو آل شنب.

(٣) ص٣ من النص الفارسي.

العروضي نفسه من الشعراء الذين خلدوا اسم الملوك الغوريين[١].

ويبدو من العبارات الكثيرة التي تحدث فيها المصنف عن نفسه في ثنايا كتابه أنه اشتهر في النصف الأول من القرن السادس. وأنه ولد قبل سنة ٥٠٠ وعاش حتى سنة ٥٥٢ على الأقل وخلاصة هذه العبارات:

سمع في سنة ٥٠٤/ ١١١٠، وكان في سمرقند حيث ولد، بعض روايات عن الرودكي من الدهقان «أبورجا» ص٣٣.

وكان في مدينة بلخ سنة ٥٠٦/ ١١١٢، في خدمة عمر الخيام، وسمع في مجلس الطرب تنبؤ الخيام بالمكان الذي يدفن فيه ص٦٣.

وفي سنة ٥٠٩/ ١١١٥ كان في هراة ص٤٤.

وفي سنة ٥١٠/ ١١١٦ اتصل بالسلطان سنجر وكان مقيما عند حدود طوس، وهناك اتصل بأمير الشعراء المعزي وقرأ عليه شعره فاستحسنه وشجعه ص٤٠-٤٣.

وفي هذه الرحلة زار قبر الفردوسي ص٥١. وفي هذه السنة نفسها نجده في نيسابور ص٩.

وفي سنة ٥١٢/ ١١١٨ كان في نيسابور أيضًا ص٦٩. وفي هذا البلد سمع عام ٥١٤/ ١١٢٠ من المعزي قصة السلطان محمود مع الفردوسي ص٥٠-٥١.

وفي سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م ذهب إلى نيسابور وزار قبر الخيام، ورأى بعينيه تحقق

---

(١)ص٢٨ من النص الفارسي.

ما قاله قبل أربع وعشرين سنة ص٦٣.

وفي سنة ٥٤٧/ ١١٥٢ كان العروضي مرافقا للسلطان علاء الدين الغوري في محاربة السلطان سنجر السلجوقي في صحراء أوبة على حدود هراة حيث اختفى زمنا بعد هزيمة الغورية ص٦٥-٦٧، ٨٧-٨٨.

وقد رأينا من قبل أنه كتب كتابه بين سنتي ٥٥١ و٥٥٢ هجرية. ولا يعرف عنه شيء بعد ذلك[1].

٣

الحواشي

وصاحب الحواشي، محمد القزويني في غنى عن التعريف. فهو العلّامة المحقق الذي يعرفه مؤرخو الآداب والحياة العقلية الإسلامية بأبحاثه القيمة وتحقيقاته التاريخية العميقة الدقيقة التي مكنه منها رجوعه إلى المخطوطات المبعثرة في مكاتب أوربا وأسيا وإلى الكتب القديمة والبحث فيها في مثابرة وجد للكشف عن الحقيقة التي ينشدها. وسيجد القارئ العربي هذا المجهود الضخم الذي اضطلع به القزويني في حواشيه، وسيرى المؤرخون إلى أي حد كشف هذا العالم عن بعض القضايا الغامضة فأوضحها وجلاها.

وقد أقام القزويني في أوربا مدة طويلة واعتمد عليه المستشرقون في نشر الكتب الفارسية القيمة، وزرناه في باريس أكثر من مرة وحدثه الدكتور عبد الوهاب عزام

(١) أرقام الصفحات المذكورة هنا تشير إلى النص الفارسي لطبعة جب التذكارية.

obeikandl.com

عن ترجمة جهار مقاله وحواشيه عليها إلى العربية فسرّه هذا وقال: إنه كتب حواش أخرى كثيرة بعد طبع الكتاب.

ولم يتيسر لنا الاطلاع على الحواشي الجديدة إذ لم تنشر حتى اليوم فيما نعلم ولعلنا نزيد بعض هذه الحواشي في الطبعة الثانية لهذه الترجمة إن شاء الله.

obeikandl.com

obeikandl.com

جہار مقالہ

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد والشكر والثناء لذلك الملك الذي خلق عالم العود والمعاد بتوسط الملائكة الكروبيين والروحانيين، وبرأ عالم الكون والفساد بتوسط ذلك العالم. ودبره بالأمر والنهي من الأنبياء والأولياء، وحفظه بالسيف والقلم في أيدي الملوك والوزراء.

والصلاة على سيد الكونين أكمل الأنبياء، والسلام على أهل بيته وأصحابه أفضل الأولياء.

ثم الثناء على سلطان الوقت، الملك العالم العادل المؤيد المظفر المنصور (حسام الدولة والدين نصرة الإسلام والمسلمين، قامع الكفرة والمشركين قاهر الزنادقة والمتمردين عمدة الجيوش في العالمين، افتخار الملوك والسلاطين، ظهير الأيام، مجير الأنام، عضد الخلافة، جمال الملة جلال الأمة، نظام العرب والعجم، أصيل العالم، شمس المعالي، ملك الأمراء، أبو الحسن علي بن مسعود[1] نصير أمير المؤمنين)[1].

جعل الله حياته على مرامه، وأكثر الناس طوع سلطانه، ونظام ذرية آدم بتدبيره واهتمامه. فهو اليوم أفضل سلاطين الوقت في الأصل والنسب والرأي والتدبير، والعدل والإنصاف، والشجاعة والسخاوة، وتزيين الملك، وترتيب الولاية، ورعاية الصديق، وقهر العدو، وحفظ الجيش وحراسة الرعية، وتأمين المسالك، وتسكين الممالك، بالرأي السديد والعقل الرشيد، والحزم القوي، والعزم الماضي. فسلسلة آل شنسب بجماله منضدة ومنظمة، ويد دولة هذه الأسرة بكماله مؤيدة ومسلمة، متعه

(١) ما بين القوسين كتبه المؤلف بهذه العبارات العربية.

الله وملوك أسرته بالمُلك والمِلك، والتخت والبخت، والصيت والظفر، والأمر والنهي بمنه وعميم فضله.

فصل

مضى الناس منذ عهد بعيد، ودرجوا على هذا الرسم القديم أن المؤلف في فاتحة الكلام وديباجة الكتاب يذكر طرفا من محامد المخدوم، ويدعو قليلا للممدوح.

ولكني أنا العبد المخلص، سأجعل في هذا الكتاب، مكان المدح والثناء على السلطان، تذكيره بالنعم التي أنعم بها الباري تعالى وتقدس على هذا السلطان ابن السلطان لتعرض على رأيه السديد، فيشكر هذه النعم، فقد جاء في الكتاب غير المخلوق، والكلام غير المحدث: {لئن شكرتم لأزيدنكم} [إبراهيم: ٧] فإن شكر العبد كيمياء إنعام الرب المنعم.

فليعلم هذا السلطان الكبير والملك العظيم أنه لا يلقى اليوم على هذه الكرة الغبراء، تحت هذه المظلة الزرقاء ملك أكثر رفاهية، من هذا السيد، ولا كبير أظفر بمراده من هذا الملك، فموهبة الشباب قائمة، ونعمة الصحة ثابتة، والأبوان في نعمة الحياة، والأخوة من اليمن واليسار في طاعته. وأي أب كالسيد الملك المعظم، المؤيد المظفر المنصور فخر الدولة والدين كسرى إيران، (ملك الجبال أطال الله بقاءه، وأدام إلى المعالي ارتقاءه) فهو أعظم سلاطين الوقت، وأفضل ملوك العصر بالرأي والتدبير، والعلم والحلم، والعدة والعدد، والكنوز والخزائن، قد نصب نفسه مجنًا دون أبنائه بعشرة آلاف فارس رامح حتى لا تهب الصبا شديدة، على أحد من عبيده.

وفي الستر الرفيع والخدر المنيع أدام الله رفعتها داعية كل دعوة منها، في صميم

السحر على السدة الإلهية، ترد الجيش الجرار، والجند الكرار.

وأخ كالسيد ابن السيد (شمس الدولة والدين، ضياء الإسلام والمسلمين عز نصره) الذي بلغ الغاية والنهاية في خدمة هذا السيد أدام الله علوه، وهذا السيد والحمد لله، لم يدخر وسعًا في المجازاة والمكافأة، بل يرى الدنيا منيرة بوجهه، ويمضي العمر حلوًا بجماله.

وأخرى من النعم أكبر أن المنعم ذا الكمال، والواهب المنزه عن الزوال، متعه بعم كسيد العالَم وسلطان الشرق (علاء الدين والدنيا أبو علي الحسين بن الحسين اختيار أمير المؤمنين أدام الله عمره وخلد ملكه) في خمسين ألف دارع مجاهد قهروا جيوش العالم كلها وقهروا ملوك العصر أجمعين.

والله تبارك وتعالى يرفق كلا بالآخر، ويمتع بعضهم ببعض، وينير العالم بآثارهم بمنه وجوده وكرمه.

أول الكتاب

أراد العبد المخلص والخادم المتخصص أحمد بن عمر بن علي النظامي العروضي السمرقندي -وهو منذ خمس وأربعين سنة بخدمة هذا البيت موسوم، وبرحم عبودية هذه الدولة مرقوم- أن يخدم المجلس الأعلى السلطاني أعلاه الله بكتاب مرتب على قوانين الحكمة بحجج قاطعة وبراهين ساطعة، ويبين فيه ما السلطنة وما السلطان ومن أين هذا التشريف ولمن هذا الإكرام، وهذا الحمد كيف يوخى به، وهذه المنة كيف تتلقى ليكون ثاني سيد ولد آدم، وثالث خلق العالم كما جاء في الكتاب المحكم والكلام القديم نظم لآلئ هذه الأسماء في سلك واحد، وتجليتها في

سمط مفرد قوله عز وجل: {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} [النساء: ٥٩] فليس في مدارج الموجودات، ومعارج المعقولات بعد النبوة التي هي غاية مراتب الإنسانية، مرتبة وراء المُلك وذلك الفضل من الله.

والله عز وعلا جعل سلطان الوقت في هذه المنزلة، وأوجب له هذه المرتبة ليسير على سنن الملوك الماضين، ويرشد الرعايا إلى نهج القرون السالفة.

فصل

ليعلم الرأي العالي أعلاه الله أن الموجودات لا تعدو اثنين: إما موجود وجوده بنفسه، وإما موجود وجوده بغيره. فالموجود الذي وجوده بنفسه يسمى واجب الوجود، وهو البارئ تقدس وتعالى فهو موجود بنفسه، فقد كان أزلا إذ لم يكن محتاجَ غيرِه وهو دائم أبدا لأنه قائم بنفسه لا بغيره.

والموجود الذي وجوده بغيره يسمى ممكن الوجود. وممكن الوجود مثلنا. لأن وجودنا من المني، والمني من الدم، والدم من الغذاء، والغذاء من الماء والأرض والشمس، ووجود هذه من شيء آخر. وكل هذه لم تكن بالأمس ولن تكون غدا.

وإذا استقصى المتأمل وجد سلسلة الأسباب هذه تنتهي إلى سبب لم يكن له وجود بغيره ووجوده واجب بنفسه فهو خالق الأشياء كلها، وكلها وجدت به، وهي به قائمة.

وإذا تفكر الناظر قليلا في هذا المقام تبين أن كل الموجودات وجود مشوب بالعدم وهو وجود متصل بدوام الأزل والأبد.

ولأن أصل المخلوقات العدم جاز أن تعود إلى العدم. وقد قال أولو البصيرة من الناس: (كل شيء يرجع إلى أصله) ولا سيما في عالم الكون والفساد. فنحن ممكني الوجود أصلنا العدم، وهو واجب الوجود، عينه الوجود. وقد قال هو جل ثناؤه ورفع سناؤه في الكلام البين والحبل المتين: {كل شيء هالك إلا وجهه}.

وينبغي أن يعلم أن هذا العالم الذي يقع في خلال فلك القمر وفي دائرة هذه الكرة الأولى يسمى عالم الكون والفساد. وينبغي أن يُتصور أن في مقعر فلك القمر نارا وفلك القمر محيط بها، وفي داخل كرة النار الهواء والنار محيطة به، وفي داخل الهواء الماء والهواء محيط به، وفي داخل الماء التراب والماء محيط به، وفي وسط الأرض نقطة موهومة كل خط يمتد منها إلى فلك القمر يلاقي الآخر. وكلما قلنا (تحت)، فإنما نريد هذه النقطة أو ما هو إليها أقرب. وكلما قلنا (فوق)، أردنا الفلك الأقصى أو ما هو أقرب إليه. وهو فلك فوق فلك البروج. وليس وراءه شيء والعالم الجسماني ينتهي إليه، أي هو درع له.

والله سبحانه وتعالى حين أراد بحكمته البالغة أن يخلق في هذا العالم المعادن والنبات خلق الكواكب ولا سيما الشمس والقمر، وربط كون هذه وفسادها بحركات تلك. وخاصية الشمس أن تُحمي الأشياء بالعكس (بالإشعاع) حين تلاقيها وبواسطة الحرارة تجذب إليها. فقد أحمت الماء بالملاقاة وبالحرارة جذبته مدة طويلة حتى انكشف ربع الأرض بسبب كثرة البخار الذي صعد من هذا الربع وارتفع.

وطبع الماء أن يقبل التحجر، كما يرى في بعض الأمكنة ويدرك برأي العين، فلذا ظهرت الجبال من الماء بحرارة الشمس، وصارت الأرض مرتفعة قليلا في هذا الجزء وانحدر الماء عنها فيبست على مثال ما يدرك بالعين. فسمي هذا الربع؛ الربع

المكشوف بهذا السبب. ويسمى الربع المسكون أيضًا لأن للحيوانات فيه مسكنا.

فصل

. ولما ظهرت آثار هذه الكواكب في أقطار هذه العناصر وانعكست من هذه النقطة الموهومة ظهرت هذه الجمادات من بين الماء والتراب بمعونة الهواء والنار كالجبال والمعادن والسحاب والبَرَد والمطر والرعد والبرق والكواكب المنقضة وذوات الذؤابة[1] والنيازك والعصي والهالة والحريق والصاعقة والزلزلة والعيون المختلفة كما بينا في «الآثار العلوية» ولا يتسع هذا المختصر للبسط والشرح.

ولما مضى زمان وتواترت أدوار الفلك، ونضج مزاج العالم السفلي، وبلغت نوبة الانفعال هذه الفُرجة التي بين الماء والهواء، ظهر عالم النبات. ثم خلق الله تبارك وتعالى لهذا الجوهر الذي ظهر منه النبات أربعة خدام وثلاث قوى. فأول الخدام الأربعة أن يجذب إليه كل ما يلائمه، وهذا يسمى الجاذبة، والثاني أن يحفظ كل ما جذبت إليه الجاذبة وهذا يسمى الماسكة. والثالث أن يهضم هذا المجذوب ويصيره ملائما لحاله حتى يصير مشابها له، وهذا يسمى الهاضمة. والرابع أن يدفع ما لا يلائمه، وهذا يسمى الدافعة.

وأما القوى الثلاث فإحداها قوة تنميه بنشر الغذاء في داخله نشرا مناسبا متساويا، والثانية قوة تصاحب هذا الغذاء ليبلغ الأطراف، والثالثة أنه إذا بلغ الكمال وشرع يتناقص ظهرت فيه قوة وأعطته البذر حتى إذا فني في هذا العالم بقي بما ينوب عنه فيضان نظام العالم من الاختلال ولا ينقطع النوع، وهذه تسمى القوة

(١) الكواكب المنقضة وذات الذؤابة، من عبارات الأصل، وذو الذؤابة هو ما نسميه المذنَّب.

المولّدة.

فهذا العالم يزيد على عالم الجماد بهذه المعاني التي ذكرت. وقد اقتضت حكمة الخالق البالغة أن يتصل هذان العالمان أحدهما بالآخر على الترادف والتوالي، فترقى الطين، وهو أول شيء في عالم الجماد، وانتقل من رتبة إلى أشرف منها حتى صار مرجانا، وهو آخر عالم الجماد، واتصل هذا بأول شيء من عالم النبات، وأول عالم النبات الشوك وآخره التمر والعنب اللذان تشبها بعالم الحيوان، فهذا يطلب الفحل ليثمر وذاك يفر من العدو، فإن الكرم يفر من العشقة وهي نبات إذا التف بأغصان الكرم يبس، فيهرب الغصن منه.

فليس في عالم النبات أشرف من الكرم والنخل لهذه العلة وهي أنهما تشبها بالعالم الذي فوقهما، ونزعا إلى الخروج من دائرة عالمهما وترقيا إلى المستوى الأشرف.

فصل

ولما كمل هذا العالم وأثرت آباء العالم العلوي في أمهات العالم السفلي، وبلغت النوبة فرجة الهواء والنار نشأ ولد ألطف، وظهر عالم الحيوان، ومعه القوى التي للنبات وزاد عليها قوتين، قوة الإدراك وتسمى المدركة، وبها يدرك الحيوان الأشياء، والثانية القوة التي بها يتحرك الحيوان، فيتجه إلى ما يلائمه، ويفر مما ينافره وتسمى القوة المحركة.

والقوة المدركة تتشعب إلى عشرة فروع؛ خمسة تسمى الحواس الظاهرة، وخمسة تسمى الحواس الباطنة، فالحواس الظاهرة كاللمس والذوق والبصر والسمع والشم.

فأما قوة اللمس فهي قوة منتشرة في لحم الحيوان وجلده فإذا مسه شيء أحسته الأعصاب وأدركته من اليبوسة والرطوبة، والحرارة والبرودة والصلابة واللين، والخشونة والنعومة.

وأما الذوق فقوة مرتبة في العصب المنتشر على سطح اللسان تدرك الطعام المتحلل من الأجرام التي تماسه. فتميز بين الحلو المر والحريف والحامض وأمثالها.

وأما السمع فقوة مرتبة في العصب المتفرق الذي في سطح الصماخ تدرك الصوت الذي يصل إليه من تموج هواء يضغط بين متقارعين، أعني جسمين يقرع أحدهما الآخر، فيتموج الهواء من تقارعهما ويحدث الصوت فيؤديه إلى هواء في تجويف الصماخ ويماسه فيتصل بهذا العصب فيكون السمع.

وأما البصر فقوة مرتبة في العصبة المجوفة تدرك الصورة التي تنطبع في الرطوبة الجليدية من الأشباح والأجسام الملونة بتوسط جسم شفاف بينه وبين سطوح الأجسام الصقيلة.

وأما الشم فقوة مرتبة في زيادة خارجة من مقدم الدماغ مثل حلمة الثدي تدرك ما يوصل إليه الهواء المستنشق من رائحة تخالطه أو البخار الذي يجلبه الهواء أو ينطبع فيه باستحالته من جسم ذي رائحة.

فصل

وأما الحواس الباطنة فبعضها تدرك صور المحسوسات وبعضها تدرك معاني المحسوسات.

فأولاها الحس المشترك وهو قوة مرتبة في التجويف الأول من الدماغ قابلة بنفسها جملة الصور التي تقبلها الحواس الظاهرة وتنطبع فيها لتؤديها إلى هذه القوة. وإنما يكون المحسوس محسوسًا حين تقبله.

والثانية الخيال وهي قوة مرتبة في آخر تجويف مقدّم الدماغ تحفظ ما يقبله الحس المشترك من الحواس الظاهرة فيبقى فيها بعد غيبة المحسوسات.

والثالثة القوة المتخيلة -وحينما تذكر مع النفس الحيوانية تسمى متخيلة، وحينما تذكر مع النفس الإنسانية تسمى المفكرة- وهي قوة مرتبة في التجويف الأوسط من الدماغ. وعملها أن تركب الجزئيات التي في الخيال بعضها مع بعض وتفرق بين بعضها وبعض باختيار الفكر.

والرابعة قوة الوهم. وهي قوة مرتبة في نهاية التجويف الأوسط من الدماغ. وعملها أن تدرك المعاني غير المحسوسة التي تكون في المحسوسات الجزئية. كالقوة التي يميز بها الحمل بين أمه والذئب، والطفل بين الرسن المرقش والثعبان.

والخامسة القوة الحافظة، وتسمى الذاكرة أيضًا، وهي قوة مرتبة في التجويف الآخر من الدماغ. وهي تحفظ ما يدركه الوهم من المعاني غير المحسوسة، ونسبتها إلى قوة الوهم كنسبة قوة الخيال إلى الحس المشترك ولكن هذه تحفظ المعاني وتلك تحفظ الصور.

وكل هؤلاء خادمات النفس الحيوانية. وهي جوهر منبعه القلب. وحينما يعمل في القلب يسمى الروح الحيواني. وحينما يعمل في الدماغ يسمى الروح النفساني. وحينما يعمل في الكبد يسمى الروح الطبيعي، وهو بخار لطيف ينبعث من الدم ويسري في أعلى الشرايين، وهو في الضوء كالشمس.

وكل حيوان فيه القوتان المدركة والمتحركة وهذه القوى العشر المتشعبة منهما يسمى حيوانا كاملا. وكل ما نقصه بعضها ناقص مثل النملة لا عين لها، والثعبان الذي لا أذن له ويسمى الثعبان الأصم. ولا أنقص من الخراطين وهي دودة حمراء تكون في طين النهر وتسمى (آكلة الطين)[١]، وفيما وراء النهر تسمى (غاكُ كزمه)[٢]. فهي أول الحيوان، وآخره النسناس، وهو حيوان في فيافي تركستان (منتصب القامة ألِفي القد عريض الأظفار) ويحب الإنسان كثيرا فكلما رأى إنسانا جاء إلى عرض الطريق وأدام النظر إليه وإذا رأى إنسانا منفردا أخذه. ويقال: إنه يلقح منه فهو بعد الإنسان أشرف الحيوان، لأنه أشبه الآدمي في أشياء: الأول القامة والثاني عرض الأظفار، والثالث شعر الرأس.

حكاية

سمعت من أبي الرضا بن عبد السلام النيسابوري في نيسابور في المسجد الجامع سنة عشر وخمسمائة[٢] قال:

كنا نذهب إلى طمغاج[٣] في قافلة فيها بضعة آلاف جمل وبينما نسير في يوم حار رأينا على الرمل امرأة قائمة عارية الرأس والبدن في غاية الجمال، لها قدّ كالسرو ووجه كالقمر وشعر طويل، وهي تديم النظر إلينا. وقد كلمناها كثيرا فلم تجب. فلما قصدنا نحوها فرت. وبلغ من عدوها في فرارها أن حصانا لم يدركها قط.

وكان المكارون في القافلة من الترك فقالوا: إنها إنسان وحشي يسمى النسناس.

---

(١) كل خواره.

(٢) ١١١٦-١١١٧.

وينبغي أن يعلم أنه أشرف الحيوان بهذه الأشياء الثلاثة التي ذكرت.

ولما زادت لطافة المزاج على كر الدهور ومر الأيام وبلغت النوبة الغرجة التي بين العناصر والأفلاك نشأ الإنسان. وقد جمع كل ما في عالم الجماد والنبات والحيوان وزاد عليها قبول المعقولات. وصار بالعقل ملكا على كل الحيوانات وتصرف فيها كلها؛ فاتخذ من عالم الجماد الذهب والفضة والجواهر لزينته. وصنع من الحديد والزنك والنحاس والرصاص والقصدير أوانيه وآلاته.

ومن النبات أُكلا ولباسًا وفراشا، واتخذ من عالم الحيوان مركبا وحمولة. واتخذ من العوالم الثلاثة أدوية وعالج بها نفسه. وقد تيسر له كل هذا التفوق بما عرف المعقولات. وبتوسط المعقولات عرف الله. وإنما عرف الله بما عرف نفسه (من عرف نفسه فقد عرف ربه).

ثم هذا العالم إذًا ثلاثة أقسام: قسم قريب من الحيوان كسكان الصحاري والجبال الذين لا ترتقي هممهم فوق تدبير المعاش بجلب المنفعة ودفع المضرة.

وقسم أهلُ البلاد والمدائن الذين لهم التمدن والتعاون واستنباط الحرف والصناعات. وعلومهم مقصورة على تدبير الشركة التي بينهم ليبقى النوع.

والقسم الثالث هم الذين فرغوا من هذا كله. وعملهم ليلا ونهارا وسرا وجهارا أن يفكروا ما نحن؟ وكيف وُجدنا؟ ومن الذي أنشأنا؟ وأعني الباحثين عن حقائق الأشياء والمتأملين في مجيئهم وذهابهم: كيف جئنا وأين نذهب.

وهذا القسم نوعان أيضًا: نوع يبلغون كنه مطلوبهم بالتعلم والتلقف والتكلف والقراءة والكتابة وهم يسمون الحكماء. ونوع يبلغون منتهى هذه الفكرة بغير معلم

ودون كتابة وأولئك يسمون الأنبياء.

وخصائص النبي ثلاث: الأولى أن يعلم العلوم غير معلَّم. والثانية أن يخبر عن الماضي والمستقبل لا من طريق المثال والقياس. والثالثة أن لنفسه قوة على أن ينزع من كل جسم يشاء صورته ويبدل بها صورة أخرى. وهو لا يستطيع هذا إلا أن تكون له مشابهة بعالم الملائكة. فليس في عالم الإنسان أكمل منه. وأمره في مصالح العالم نافذ لأن عنده كل ما عندهم وزيادة ليست عندهم وهي اتصاله بعالم الملائكة. وهذه الزيادة تسمى بالإجمال النبوة، وبالتفصيل كما بينا.

وما دام هذا الإنسان حيًا يبين للأمة مصالح الدارين بأمر الباري عز اسمه وبواسطة الملائكة. فإذا توجه إلى العالم الآخر بانحلال الطبيعة ترك من إشارات الباري عز اسمه ومن عباراته هو دستورًا يقوم مقامه.

ولا بد له من نائب في كل حين ليقيم شرعه وسنته. وهذا الشخص ينبغي أن يكون أفضل الجماعة وأكمل أهل الوقت ليحيي هذه الشريعة ويُمضي هذه السنة، ويسمى الإمام. وهذا الإمام لا يستطيع أن يذهب إلى آفاق المشرق والمغرب والشمال والجنوب ليرعى القاصي والداني، ويبلغ أمره العاقل والجاهل. فلا بد له من نواب يقومون مقامه في أطراف العالم. وليس لكل منهم القوة القاهرة التي تنفذ أمره. فلا بد من سائس ولا غنى عن قاهر. وهذا السائس والقاهر يسمى ملكا وتسمى هذه النيابة الملك. فالملك نائب الإمام، والإمام نائب النبي، والنبي نائب الله عز وجل. وما أحسن ما قال الفردوسي في هذا المعنى:

«اعلم أن النبوة والملك جوهران في خاتم واحد»[1].

---

(١) جنان دان كه شاهي وبغمبريدو كو هر بود دريك انكشترى

وقد قال سيد ولد آدم: «الدين والملك توأمان». فهما في الشكل والمعنى لا يزيد أحدهما على الآخر ولا ينقص.

فينتج من هذا أنه ليس بعد النبوة عبء أثقل من الملك ولا عمل أقوى من الملك، فلزم أن يكون حوله جماعة، يرجع إلى رأيهم ومشورتهم وتدبيرهم الحل والعقد في العالم، والصلاح والفساد بين عباد الله. وينبغي أن يكون كل واحد منهم أفضل أهل الوقت وأكملهم.

ثم الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب من خواص الملوك، ولا غنى للملك عنهم. فقوام الملك بالكاتب، وتخليد الاسم بالشاعر، ونظام الأمور بالمنجم، وصحة البدن بالطبيب. وهذه الأعمال الأربعة الشاقة والعلوم الشريفة من فروع علم الحكمة، الكتابة والشعر من فروع علم المنطق، والتنجيم من فروع العلم الرياضي، والطب من فروع العلم الطبيعي.

فهذا الكتاب مشتمل على أربع مقالات:

الأولى: في ماهية الكتابة وصفة الكاتب البليغ الكامل.

والثانية: في ماهية الشعر وصلاحية الشاعر.

والثالثة: في ماهية علم النجوم وتمكن المنجم في هذا العلم.

والرابعة: في ماهية علم الطب وهدي الطبيب وصفته.

فقد أوردنا في رأس كل مقالة ما يليق بهذا الكتاب من الحكمة وأتبعناه بعشر حكايات[٤] طريفة من نوادر هذا الباب وبدائع هذه المقالة وقعت لهذه الطبقة، ليتبين

للملك ويعلم أن الكتابة ليست أمرًا أمامًا، وأن الشعر ليس شغلا يسيرا، وأن علم النجوم علم ضروري، وأن الطب صفة لازمة. وأن الملك العاقل لا مناص له من هؤلاء الأشخاص الأربعة: الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب.

obeikandl.com